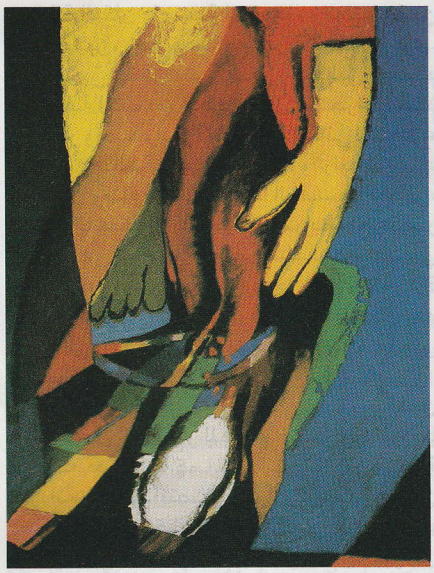

«مراكش ١٩٩٣» (٤٦ X ٥٦ سم، أكريليك على القماش).

حول المرحلة الأخيرة لضياء العزّاوي

ليلٌ يحدّق فينا

بيروت – عباس بيضون

زائر معرض ضياء العزّاوي الذي تجول بين عمان ودمشق وبيروت، لا يلبث ان يفتتن بما يرى. والافتتان أيضاً حجاب، والمفتون ذاهل مجذوب، يرى ولا يرى. ثمة فتنة في ملوّنه "بونارية" (نسبة الى الفنان بونار)، يبدو فيها الأحمر البطيخي والأصفر الخردلي والأخضر الزيتي والأزرق النيلي والأسود اللماع والبني الوحلي وكأنها العروق الأصلية للوحة ودمها وعصارتها. لكن الأسود يجعل للوحة مقلباً ثانياً، بل يجعل للوحة ثنائية واضحة: فهي نهار وليل في آن معاً، وهي أيضاً الظل العميق والظلمة المتألقة تتمرّى عليها الأشياء، وهي أحياناً كما في حدائق ماجوريل مادة بصرية شجية.

وهذه الثنائية تتحكم بالتشكيلات الدهاليزية والرحمية، والخطوط والأشكال الخام أحياناً، والوجوه الفخارية التي في ملامحها الطولية لوعة، وفي أعينها المفتوحة ليلٌ يحدّق فينا. ولا يبقى النهار "البوناري" وحده في التشكيلات والخطوط الطولية المتعرجة الساقطة من رأس اللوحة الى أسفلها، وكأنها تتلوى في باطن التراب وفي الأودية والأنهار الطويلة قبل أن تصل الى مصبّها. إن للوحة عمقاً ليلياً، وهي تكاد تقترب على دفعات من الليل الكبير، واشكالها تتمرّى على ضفة الليل. ثم ان للوحة التماعات السر وايماءات المجهول. وهي أيضاً لوحة مخاض داخلي، وربما نزاع مكبوت. ولا نشك ان المشهد يولد من صراع وألم، وبعض دم الولادة باد في اللوحة.

يفتن في هذا الترصع الفسيفسائي احتدام داخلي وحركة متوترة... وثنائية اللوحة التي ليست نهاراً وليلاً فحسب، ولكنها تنازع وتجاذب وتشابك عالمين. وهذه الدرامية تجعل لوحة العزّاوي فضاءً مشعشعاً، على رغم ما تنطوي عليه من أشياء وصلت الى النور وأخرى لا تزال في السر، فكأن قوة الألوان غير العادية من هذا الانبثاق والوصول. لوحة العزّاوي الجديدة تتكوّن من جزئيات فسيفسائية. لكن الألوان هنا ليست مادة فحسب، بل فصوص وشظايا ومنثورات ضوئية، وربما هذا ما يجعلها تتشكّل من أكثر من سطح وطبقة. فهذه الطبقات بعضها أعمق من البعض الآخر، انما تبقى مع ذلك مكوكبة كصخرة مرجانية، في فضاء من الأصفر والأسود والأحمر.

وتفتن هنا السهولة التي يستطيع بها التجريد ان يعلن نفسه. بل أن الذهن لا يذهب لدى رؤية لوحات العزّاوي الى التجريد أساساً. فالتعبيرية تحضر أيضاً من خلال ألوان فرانز مارك، الميتافيزيقية وإميل نولد... وربما لاحت لنا الـ «غيرنيكا» غير مرة، أو فكرنا من بعيد بشاغال وبكاندينسكي في الجانب التعبيري من تجربته.

لوحة ضياء العزّاوي عالم من التعبير، من العنف الأسلوبي – اذا جاز القول – كل ذلك وسط نوع الترصيع الفسيفسائي ومن تقطيع الزجاجيات، في العيد اللوني. تجريده حركة، يعبر الى التجسيم بسهولة مفرطة، فإذا بالجزئيات الفسيفسائية تتعمر في نوع من برج ومن زقورة، بل وربما أوحت بأنها ترتفع في شبه تمثال آشوري. والضوء هنا يتجه الى ان يكون مادة ونحتاً، وما يتعمر منه هذا البناء الشاهق قد تكون له شفافية المناديل.

هكذا نتوقّف عند التعبيرية ونسى التجريد. نشعر ان الوحشية هنا، بل والتعبيرية الالمانية بوجه خاص. لكننا أيضاً نرى قبل وبعد: انها اللوحة التي تفتن. والفتنة أيضاً تذهل، وقد نرى ولا نرى. ومع ذلك نشعر أحياناً أن بعض اللوحات – لفرط ما فيها من دقة الصنعة وولع التركيب والدأب على كل تفصيل – لا تتنفس جيداً وتفتقر الى تهوئة كافية. ولربما شعرنا ان البناء في اللوحات ذات الاستلهام التكعيبي غالباً ما يبدو مضغوطاً ومحبوساً من الداخل. فهل هي الصرامة التأليفية تكتل وتدغم أحياناً، في زمن واحد، عناصر غير متجانسة أو غير جاهزة؟

يبدو ان العزّاوي يصنع على طريقته ما يشبه الكولاج، وما يشبه التجميع. ونتساءل – مع أن الامر ليس ضرورياً – عن زمن لوحة العزّاوي. فقد يساعدنا التساؤل على التمييز بين لوحة وأخرى. واذا بنا نرى في «مراكش – ١» و«حلم» وخاصة «غوايات رقم ٣» لوحات ذات تأثير عميق، فيما لا نرى في بعض اللوحات سوى الفتنة الزائلة ■

نظرة